

الاستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي Military strategy in Islamic thought

عادل جارش^{1*}، أسامة سليخ²

¹المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، (الجزائر)، adelspir@gmail.com

²المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، (الجزائر)، oussamapolitics@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/12/27

تاريخ قبول النشر: 2021/11/27

تاريخ الإستلام: 2021/09/17

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على أحد أبرز المواضيع المهمة في الفكر الإستراتيجي الإسلامي، ويتعلق ذلك بتطور الإستراتيجية العسكرية الإسلامية التي يبدو أنها لم تحظى باهتمام كبير من طرف الباحثين مقارنة بالإستراتيجية الغربية، حيث يسعى هذا المقال إلى التعرض إلى أبرز المفاهيم والأسس التي تتعلق بالحرب في الإسلام، وكذلك تطور الاستراتيجية العسكرية الإسلامية ثم أخيراً معركة اليرموك التي يمكن اعتبارها نموذجاً مناسباً لدراسة أبرز حثيات ومضامين الحرب في الإسلام. ولقد خلصت الدراسة بأن الاستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي تتميز عن الحضارات الأخرى بمراعاتها الجوانب الانسانية والأخلاقية في ساحات القتال، كما عرفت تطوراً ملحوظاً من حيث السياقات المادية والتنظيمية المتعلقة بالحرب.

الكلمات مفتاحية: العقيدة العسكرية؛ الاستراتيجية العسكرية؛ الحرب؛ معركة اليرموك.

Abstract:

This study aims to shed light on one of the most important topics in Islamic strategic thought, and this is related to the development of the Islamic military strategy, which appears to have not received much attention from researchers compared to the Western strategy. This article seeks to present the most prominent concepts and foundations related to war in Islam, and the development of Islamic military strategy, finally the Yarmouk Battle, which is a suitable model for studying the most prominent pillars of war in Islam.

The study concluded that the military strategy in Islamic thought is distinguished from other civilizations by taking into account the humanitarian and moral aspects in the arenas of war and fighting, and it has also known a remarkable development in terms of the material and organizational contexts of war.

Keywords: Military Doctrine; Military Strategy; The War; The Battle of Yarmouk.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن معالجة موضوع تطور الإستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي يمثل حلقة جد مهمة في الفكر الاستراتيجي العسكري بصفة عامة، وهي حلقة شبه مغيبة في أغلب الكتابات الغربية المهتمة بهذا المجال، فلو أخذنا على سبيل المثال كتاب "ليدل هارت" Liddell Hart حول الإستراتيجية وتاريخها عبر العالم، والذي درس فيه تطور الإستراتيجية العسكرية عبر التاريخ من خلال تحليله لأهم المعارك الحربية من قبل الميلاد إلى غاية الحرب العالمية الثانية، لم يذكر أي من معارك المسلمين في حروبهم التاريخية مع القوى العظمى آنذاك، وإن ندرت الكتابات الغربية حول الإستراتيجية العسكرية في هذه المرحلة فإن ذلك لا ينفي وجود حلقة مهمة في سلسلة التاريخ الإستراتيجي العسكري، والتي وجدت في الشق الشرقي من الكرة الأرضية.

لقد تميزت الإستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي بأساليبها الحربية التي تختلف عن من سبقها من الأمم، ولا يتجلى ذلك فقط من خلال شساعة الأراضي والبلدان التي تم فتحها، فالإسكندر المقدوني احتل بلاداً بلغت ما فتحه المسلمون وكذلك جنكيز خان ونابليون، إلا أن ما يميز الحرب في الفكر الإسلامي هو تميزها بمجموعة من الأبعاد والمبادئ خاصة في الجانب الأخلاقي والإنساني في المعارك.

ولقد علم القادة العسكريين المسلمين آنذاك بأن الأبعاد الأخلاقية والإنسانية والعقائدية وحدها لم تكن كافية لتحقيق النصر في المعارك الحربية الكثيرة التي خاضها المسلمون، بل كان لابد من التفكير في وضع إستراتيجيات عسكرية محكمة وفعالة، خاصة في ظل نقص العدد والعتاد الحربي الذي كانت تتميز به الجيوش الإسلامية، وذلك مقارنة بالقدرات العسكرية التي كان يمتلكها الجيش الروماني والجيش الفارسي، وبالفعل فقد أسهمت هذه الإنطلاقة بشكل كبير في تصدير "فن الحرب الإسلامي" Islamic Art of War الذي أدهش الكثير من الباحثين والمؤرخين في الشأن الحربي والعسكري لا سيما فيما يتعلق بمدى قدرة إزالة بعض الجيوش الإسلامية بقدرات بسيطة وأفكار وخطط محكمة أكبر جيشين عرفهما التاريخ (الفرس وروما)، وكيف تمكنت أيضاً قوات المسلمين من الانتشار وتوسيع حدودها ونفوذها في أوروبا وآسيا وشمال إفريقيا مع السيطرة على عدة بحار أهمها بحر الروم -البحر الأبيض المتوسط-.

إذن انطلاقاً من هذا الطرح فإن هذه الورقة البحثية تسعى للبحث في حيثيات هذا الموضوع قصد التعرف أكثر على الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، وذلك من خلال طرح التساؤل الآتي: ما هي أبرز معالم ومرتكزات الاستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي؟

ولمقاربة هذا الإشكال أو التساؤل، فسوف يتم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي والاقترب التاريخي كونهما الأنسب لدراسة الموضوع سواء كان من حيث طرح المفاهيم الأساسية وشرحها أو من حيث تحليل بعض المعطيات والأحداث التاريخية المهمة كمعركة اليرموك.

2. حول مفهوم العقيدة العسكرية في الإسلام

1.2 التعريف والمميزات:

العقيدة العسكرية هي مصطلح عسكري عادةً ما يستعمل في أبسط معانيه للدلالة على ما يتم تدريسه في مدرسة عسكرية أو وحدات قتالية حول الأساليب والخطط والأدوات وطرق القتال التي يجب استخدامها لتنفيذ الهدف العسكري، لكن لا بد من التأكيد هنا بأن هذا المصطلح لا يقتصر فقط على الجانب أو المعنى التكتيكي له، بل هو عبارة عن مجموعة من الأفكار والمبادئ التي يمكن تسميتها بـ: "دستور العسكر" يتم من خلالها توجيه الأفراد وعمل القوات المسلحة، كما أنها لم تعد بذلك المعنى الجامد الذي يتضمن مجموعة من القوانين والنظريات الحربية، بل يتجاوز اليوم ذلك شاملاً الخبرة العسكرية، والحنكة وكذلك النمط الإبداعي الذي يولد الأفكار والأساليب الجديدة، وتهدف العقيدة العسكرية غالباً إلى تحقيق غرضين أساسيين، إذ يتعلق الأول بكيفية خلق أرضية لصناعة الأفكار والأسس المشتركة لها، أما الثاني فيتعلق بالتوجيه وكيفية تقديم الإرشادات المناسبة لتوجيه صناعات القرار والقادة العسكريين للتعامل مع القضايا والتحديات الداخلية والخارجية التي يواجهونها¹.

وتعرف أيضاً بأنها ذلك العمل العسكري الذي يسعى دائماً للبحث عن أكثر الوسائل عقلانية لأجل تبرير وتوثيق سياسة عسكرية معينة²، إذ تحاول الدولة تبنيتها تماشياً مع التحديات والقضايا التي تواجهها، وهي أيضاً عبارة عن نظام فكري يربط بين الحرب والقتال وتوجهات الدولة السياسية والأمنية تعتمد على القوى الفاعلة والنافذة في المجال الأمني من أجل التعامل مع وضع أمني معين³.

أما عن التصور الإسلامي للعقيدة العسكرية فهو لا يختلف كثيراً عن المفهوم الغربي بشكل عام من حيث التعريف؛ أي أنها: "مجموعة من الأفكار والمبادئ التي توجه عمل القوات المسلحة وصناعات القرار حيال قضايا معينة" لكنه من حيث المضمون يحمل في طياته الكثير من المبادئ الأخلاقية والإنسانية، وهذا ما يميزه عن التصورات الغربية كون العقيدة الإسلامية مرجعها الأساسي الدين، وتتميز العقيدة العسكرية الإسلامية عن الغربية بأن منطلقاتها إنسانية ودينية وأخلاقية وفكرية منضبطة تمنح المشروعية والمبرر للجيش الإسلامية للقيام بعمل معين عادة ما يكون القصد منه الدفاع عن النفس، لأن الاعتداء على الآخرين ظلماً لا يجوز، ولأن الحرب أيضاً في الإسلام كتبت كرهاً، والغرض منها ليس غرضاً مادياً أو دنيوياً يهدف إلى السيطرة على مقدرات الشعوب، بل هي إعلاء لكلمة الحق والعدالة والرحمة والأخوة، وحفاظاً على الأمة في أراضيها ومقدساتها ومقدراتها⁴، فالإسلام يدعو الناس جميعاً إلى السلم، وذلك مصداقاً لقوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ"⁵، وفي قوله تعالى: " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"⁶. وبالتالي يمكن الإقرار بأن العقيدة العسكرية الإسلامية تتبلور أساساً من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وهي عقيدة سلمية ذات طابع دفاعي بحيث أنها لا تهدف إلى السيطرة أو التوسع أو الإستلاء على أراضي الغير، وهي

بذلك تتصل بشكل وثيق بالدين الإسلامي على أنه دين سلام على عكس ما يروج له إعلامياً خاصة بعد هجمات 2001/9/11 بأن الإسلام دين ينص على التطرف والإرهاب والاعتداء على الأمم الأخرى.

2.2 مفهوم الجهاد

يعتبر مفهوم الجهاد - في معناه العسكري⁷ - أحد أهم المحاور الأساسية التي تقوم عليها الإستراتيجية العسكرية الإسلامية، فهو يُعد أحد ركائز الدين الإسلامي، ويتصل مفهوم الجهاد بالجمال العسكري الذي يهتم بقضايا الأمن والحرب، وتنظيم العلاقات والآثار الحقوقية والقانونية التي تُضبط من خلالها الحرب المشروعة، لذلك يتضح التطابق بين مفهوم الجهاد والقتال في الفكر الإسلامي العسكري، ويمكن اعتبار القتال الكلمة المفتاح الأولى لتفسير الجهاد في معناه العسكري⁸.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك مجموعة من الأسباب دون غيرها تعد بمثابة الأسباب الشرعية لخوض الجهاد وإعلان الحرب في الإسلام، ومن الملفت للانتباه أنه لا توجد في القرآن آية واحدة تدل أو تشير إلى القتال لأجل إجبار الناس على اعتناق الإسلام، أو الاعتداء بل تدل آيات القتال إلى أن القتال في الإسلام قد شُرع للأسباب الآتية:

- رد العدوان

- الدفاع عن الدعوة وحرية الدين

إن أول آية تحث على القتال في القرآن الكريم قد نزلت لأجل إعطاء الإذن بالقتال بعدما لحق المسلمون من الظلم وما أكرهوا عليه من العدوان والتهجير، وذلك لما جاء في سورة الحج من الآية 39 " أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنِهِمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...⁹ "، وتتجلى أسباب القتال في هذه الآية في حق الدفاع عن الوطن وحرية الدين، كما جاء في سورة البقرة من الآية 190 قوله تعالى: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ¹⁰ ".

ويلاحظ بأن أسباب خوض الحرب في الإسلام تنطبق مع ما اصطلح عليه فقهاء القانون الدولي في فكرة الحرب المشروعة، والتي تكون في إحدى الحالتين: أن تكون دفاعاً عن النفس، وأن تكون دفاعاً عن حق ثابت للدولة من أي تهديد أجنبي تقوده دولة أو أي فاعل آخر ضدها.

3.2 البعد الأخلاقي للحرب في الإسلام

إن المتتبع للتاريخ العسكري الإستراتيجي يجد بأن هناك مجموعة من المفاهيم - على رأسها البعد الأخلاقي والإنساني في الحرب - قد ارتبطت تاريخياً بالفكر العسكري الإسلامي وهذا ما نجد مضامينه التشريعية اليوم موجودة في مختلف النصوص والقوانين والمعاهدات الدولية المتعلقة والمنظمة للحرب لاعتبارها ظاهرة إنسانية، ويتجسد مفهوم الأخلاق في الحرب من خلال وصايا الرسول محمد صل الله عليه وسلم في قوله "... اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً أو امرأة، ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعته¹¹ "، فللحرب في الإسلام آدابها وأخلاقها، فليست

الحرب في الإسلام للتدمير والتخريب ولا للتعذيب وانتهاك الحرمات ولا لقتل المسلمين من رجال الدين ولا العجزة من الشيوخ، ولا النساء ولا الأطفال، وإنما هي للقضاء على العدو المعتدي.

وقد شرع الإسلام لأسرى الحرب ما يحميهم من القتل والاستعباد وفي هذا الصدد نزلت الآية القرآنية: "مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"¹². وفي هذا الصدد يقول الفيلد مارشال مونتهومري عن إنسانية حروب الإسلام من خلال قوله: "إن المسلمين كانوا يُستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة، فزاد إيمان الشعوب بهم، وعلاوة على تميزهم في الوقت نفسه بالصلافة والشجاعة في القتال وقد أدى كل هذا إلى اعتناق معظم الشعوب التي انتصر عليها العرب الدين الإسلامي"¹³.

ولأن الإسلام يركز على الجانب الأخلاقي والإنساني في الحرب فلقد اعتبرت كره على المسلمين إلا في حالات ضرورية ومشروعة، ولم يدخله كالغرب على أساس أنه نضال مستمر يتعلق بالغاية أو المصلحة أو بمبررات عسفية أخرى، بل اعتبرها نضالاً لرفع الاعتداء، ومع ذلك فإن الراصد لبعض الأحداث الحاصلة خلال هذه السنوات سيلاحظ أن هناك من حاول أدلجة الفكر الإسلامي حول الحرب وفق مقتضيات سياسية لتحقيق أهداف معينة¹⁴.

3. مظاهر الاستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي

سيتم التطرق في هذا المحور إلى مظاهر تطور الإستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي، وذلك استناداً إلى توجهات المفكرين المسلمين من أمثال ابن خلدون والفارابي والماوردي وابن رشد، وغيرهم في نظرتهم لفكرة الحرب بصفة عامة وللإستراتيجية العسكرية على وجه الخصوص.

إن التركيز عند هؤلاء المفكرين ينصب حول موضوع صناعة الحرب ووسائلها متأثرين في ذلك بصفة كبيرة بالفكر اليوناني عند أفلاطون وأرسطو، فبالنسبة للماوردي فإنه لم يتطرق بصفة مباشرة في مجمل حديثه إلى الإستراتيجية العسكرية بمفهومها الحديث وإنما نجد مجموعة من الأفكار المتفرقة والتي يمكن تلخيصها في فكرته حول إمارة الاستيلاء فهو يقر بأنه عندما يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوض إليه تدبير سياستها، وهو نفس الشيء كما يحدث اليوم في الانقلابات العسكرية بالمفهوم الحديث، فهو يشرع حمل السلاح ضد الحاكم غير العادل بصفة عامة، أي أنه إضافة إلى مفاهيم الجهاد الذي يكون في سبيل الله فإن الماوردي يقر أيضاً باستعمال القوة العسكرية في عزل الحاكم الذي لا يؤدي واجباته تجاه الرعية¹⁵.

أما الفارابي من خلال تقسيمه للمدن يذكر مدينة التغلب التي تتميز بالطابع العسكري أو الدولة العسكرية ويكون أهلها قاهرين لغيرهم وهمم التغلب والسيطرة¹⁶، وهذه المدينة بحسب الفارابي تقوم استناداً لقوتها العسكرية في تعاملاتها الداخلية وفي علاقاتها الخارجية.

إن الأمر اللافت للانتباه هو أنه لم يتم التفصيل والتطرق إلى صناعة إستراتيجية عسكرية إسلامية واضحة المعالم، ولكن هذا لا ينفي وجود إضافات جديدة للإستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي، ويعتبر ابن خلدون

أحد أكثر الفلاسفة إسهاما في الفكر السياسي والعسكري الإسلامي، وإن أكثر ما يلفت الانتباه في فكر ابن خلدون في تخصيصه لفصلين كاملين في القسم الثالث من المقدمة يتحدث فيهما عن فلسفة الحرب والاستراتيجية العسكرية.

لقد تمكن ابن خلدون من الخروج عن المألوف عند من سبقه في الكتابات العربية عن الحرب، والتي كانت تتسم بالطابع الوصفي وتعداد المعارك والمحاربين، ولم ترقى إلى مستوى التحليل والتنظير، ذلك لعدم ربطها بالسياقات السياسية والفكرية وبالتفكير الاستراتيجي بشكل عام، فيعتبر ابن خلدون أول من نظر في الحضارة الإسلامية للاستراتيجية وللعمليات التكتيكية في ساحات الحروب.

تجدر الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون لم ينظر للحرب في حد ذاتها كظاهرة إنسانية واضحة، ولم يهدف تحليله إلى معرفة نمط تكوين الحرب ونمط صيرورتها كما فعل الألماني كلاوزفيتش من خلال كتابه الصادر في بدايات القرن التاسع عشر الموسوم بـ "في الحرب" on war، ولكن هذا لا يمنع من الإقرار بأسبقية ابن خلدون في التنظير للحرب باعتباره على التفكير الفلسفي من ناحية، وعلى التفكير المعظم في كفاءات القتال وتقنياته من ناحية أخرى، ويمكن تلخيص مجمل حديث ابن خلدون عن الحرب والاستراتيجيات العسكرية في ثلاثة عناوين أساسية¹⁷ هي طبيعة الحرب، وإستراتيجية القتال، والغاية من الحرب.

1.3 حول طبيعة الحرب

بعد قرنين من الزمن يؤكد ابن خلدون على قول "توماس هوبز" Thomas Hobbes بأن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، فابن خلدون والماوردي وابن رشد والفراي يؤكدون دائما على العنف الطبيعي في البشر متأثرين في ذلك بالفكر اليوناني القديم سواء جاء هذا العنف في قالب حرب أو قتال أو عصبية أو غزو، وفي كل مظاهر العنف الطبيعي أو العمراني الأخرى، إلا أن العنف في شكله الحربي عند ابن خلدون يتضمن أنواعا مختلفة يحددها في قسمين: قسم خاص بالحرب العادلة وهي الحرب المشروعة، وقسم خاص بالحرب غير العادلة، والتي يسميها هو حروب بغية؛ الحروب العادلة أو المشروعة على صنفين:

أ - حروب الجهاد: ويحددها ابن خلدون بغايتها الدينية البحتة، وهي بتعبيره غضب لله ولدينه.

ب - حرب الدولة: وغايتها الملك والدفاع عنه والسعي إليه والمحافظة عليه.

إن مقياس تحديد ابن خلدون لهذه الأنواع من الحرب يبقى سياسيا أساسا، فالحروب التي تتصل بالسلطة في شكلها الديني أو الدنيوي هي حروب عادلة أو هي الحرب في مفهومها المقبول وحروب البغية على صنفين:

أ - الحروب القائمة على الغيرة والمنافسة: وهي حروب تقوم بها القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة.

ب - الحروب القائمة على العدوان وهي حروب وحشية تقوم بها أمم تقتات بواسطة الحرب؛ أي حروب من جعلوا أرزاقهم في رماحهم بتعبيره، وهي بحسبه حروب فتنة وبغية.

وبالتالي يمكن القول بأن ظاهرة الحرب عند ابن خلدون تتصل بالطبيعة البشرية وهي في حقيقتها ظاهرة سياسية، فهي تقوم على ربط السيف بالسلطان، أي جعل الحرب آلية من آليات السلطة¹⁸.

2.3 إستراتيجية القتال:

من الملاحظ في كتابات ابن خلدون عن الإستراتيجية العسكرية أنه لا يميز بين الإستراتيجية والتكتيك، ويحدد أنواع المعارك وحركة الجيوش فيها ووصف الوقائع، فهناك بالنسبة إلى ابن خلدون ثلاثة أنواع للإستراتيجية الحربية حددها من خلال نوعية الشعوب التي استعملتها تاريخياً:

الإستراتيجية الأولى: وهي الزحف صفوفاً، ويعتبره ابن خلدون قتال العجم، وهي إستراتيجية النظام المحكم والمهجوم الدائم حتى القضاء على العدو.

الإستراتيجية الثانية: وهي القتال بالكر والفر، وهو قتال العرب البربر، ويعتمد الحركة المتواصلة والمهجوم والدفاع والهروب.

وهنا نلاحظ أن الإستراتيجية الأولى هي إستراتيجية سلطة منظمة وموحدة، بينما تكون الثانية للبدو لأن هدف البدو يكمن في الغارة لطلب الأرزاق، وفي هذا الخصوص يُظهر ابن خلدون ميله إلى النوع الأول من الإستراتيجية، أما النوع الثاني فيعبر عن ما أصبح يسمى اليوم بالحروب اللاتماثلية والتي أصبحت تمثل السمة الرئيسية للحروب مع مطلع القرن الحادي والعشرين والتي تتميز بعدم تكافئ وتمائل القوى المتحاربة¹⁹.

3.3 الغاية من الحرب

يعني بها ابن خلدون الغلبة أو إستراتيجية الانتصار، فمن المؤكد أن هدف كل حرب هو تحقيق الانتصار والغلبة، فالزحف واستعمال كل أنواع الأسلحة والمهجوم والقتال كلها حيوية للنجاح والانتصار في الحرب، ولكن هناك الخدعة واستعمال جميع أنواع الحيل من إعلام وشهرة، فتحقيق الغلبة والنصر في الحرب بالنسبة له يعتمد على أسباب ظاهرة وأخرى خفية، فالأسباب الظاهرة هي ما يسميه ابن خلدون بصدق القتال تتعلق بالإستراتيجية بصفة عامة، كإعداد الجيش وتنظيمه وصناعة الأسلحة وجودتها وغيرها من التحضيرات الاقتصادية والسياسية؛ أما الأسباب الخفية فهي أمور غيبية وابن خلدون يعطي أهمية قصوى للأمور السماوية، ليس اعتقاداً راسخاً منه في وجودها بل تأكيداً على تأثيرها على نفسية الجيشين المتحاربين²⁰.

وهنا تأكيد واضح منه على أهمية الحرب النفسية في تحقيق النصر لأنها تُلقى في قلوب العدو فيستولى الرعب عليهم فتختل مراكزهم، لأن في تلك الحالة تكون العصبية هي ركيزة الجيوش وأسباب وحدتها.

4. التطبيقات العملية العسكرية في الفكر الإسلامي

تجدر الإشارة في بداية هذا المحور إلى أن الدوافع العقائدية والمنطلقات الدينية عادة ما تكون لها آثار مهمة في إعطاء الشرعية للحرب، مما يؤدي إلى رفع الروح القتالية لدى الجيوش، خاصة إذا كانت هذه المنطلقات العقائدية والدوافع الإيمانية تسعى نحو تحقيق قيم التحرر والمساواة، وتحت عنوان الإسلام محرر الشعوب من العبودية يقر "المارشال مونتغمري" B.Montgomery " بأن أهم مميزات الجيوش الإسلامية لم تكن في التسليح أو التنظيم، بل في الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الإسلامية وفي خفة الحركة التي ترجع إلى مهارتهم في سرعة التحرك بالجمال والخيال، وأيضاً في قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لنمط حياتهم العصيب، على أن هناك عوامل أخرى ساعدت في الزحف غير العادي... ويحركهم أقوى دوافع الحرب ألا وهو الإيمان والعقيدة، فالكثيرون منهم خاصة في المراحل الأولى للفتوحات الإسلامية كانوا يؤمنون إيماناً راسخاً بالدعوة الإسلامية ويتحمسون لها، وذلك من خلال إيمانهم الراسخ بمبدأ الجهاد²¹ .

لعل من بين أهم المعارك التي برز فيها دور القادة في وضع الإستراتيجيات العسكرية المناسبة لتحقيق النصر، نجد معركة اليرموك بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية سنة 634م أين تمركز جيش الروم (الإمبراطورية البيزنطية) لفترة شهر كامل وهو يجمع المعلومات عن خصمه ويحاول إرهابهم بحرب نفسية عن طريق استعراض مظاهر الغنى والقوة، وجودة التسليح، وكثرة العدد مقابل قوات محرومة من كل وسائل الترف، وينقصها السلاح الجيد، وهي في قوة عديدة ضعيفة.

وقد اختار الجيش البيزنطي (الروم) التمرکز باليرموك لما في هذا الموقع من مميزات طبيعية، فعلى اليمين نهر الأردن وبحيرة طبرية يحميان جناحه الأيمن وبينه وبين جيش المسلمين نهر اليرموك الذي يحمي جبهته، أما جناحه الأيسر فلا خطر لتطويقه نظراً لتفوق الروم العددي وقدرتهم على زج القوات من اليسار، كما أن قاعدتهم الخلفية مؤمنة نظراً لاتصالها بقواعد الإمداد والتموين في عمق بلاد الشام، ولم تكن قوى جيش الروم والمسلمين متعادلة بحيث كان جيش الروم يفوق 240.000 مقاتل، ولم يتعدى جيش المسلمين آنذاك 37.000 مقاتل، وكان ميزان القوى 1/6 لصالح الروم²².

وخلال توقف جيش الروم باليرموك قام خالد ابن الوليد²³ بدراسة التنظيم العام لقوات خصمه، ووجد بأن هناك ثغرة كبيرة في الاستراتيجية العسكرية للجيش الإسلامي، وهي خوض المعركة بشكل مستقل بحيث أن كل جيش يخوض المعركة لوحده وينسق القادة مع مواقفهم، وأراد خالد أن يصهر الجيش في تنظيم واحد، فطلب من قادة الجيش عقد مؤتمر اقترح فيه إلغاء نظام التساندد وإتباع نظام التعبئة، وكان هو على رأس الجيش الذي قسمه إلى 38 كردوساً²⁴، وقد اتبع خالد هذه الخطة لأجل ضمان اتحاد الجيوش تحت قيادة واحدة، وذلك من أجل رسم خطة موحدة، لأنه بعد دراسة أرض المعركة وجد بأن لا مجال للفوز دون توحيد صفوف الجيش.

وكان من عادات الحروب آنذاك افتعال مبارزات فردية لها أثر نفسي كبير على باقي أفراد الجيش، وقد رفض "خالد ابن الوليد" خروج "الشيخ مسيرة ابن مسرق" للمبارزة الأولى لكبر سنه، كما رفض خروج "عمرو ابن

الطفيل" لصغر سنه، وأمر "قيس ابن هبيرة" بأن يخرج للنزال، وكانت الغلبة في اليرموك للمبارز المسلم، وهنا إشارة واضحة لأهمية الأخذ بأسباب النصر مع المراعاة الشديدة لأهمية معنويات الجيش قبل وأثناء المعركة، خاصة وأن بعد هذه المبارزة وثبات الجيش المسلم وحسن تنظيمه قرر قائد جيش الروم "باهان" إرسال أحد جنوده الكبار لأجل دعوة خالد ابن الوليد للمفاوضات كان هذا القائد "جرجه"، وقد تزامن قدوم هذا الأخير إلى معسكر المسلمين مع وقت صلاة المغرب فأعجب بتنظيم جيش المسلمين وقت الصلاة وسأل عن الدين الإسلامي وعن رسالته آخر الأنبياء والرسول فقام "خالد ابن الوليد" بأمر من لهم قدرة على الإقناع بالحديث مع "جرجه" فأسلم بعدها²⁵، ومن هذا المنطلق يمكن استخلاص تمازج الأبعاد العسكرية مع مفاهيم الحرب النفسية والاستقطاب في إستراتيجية المسلمين في القتال كل هذه العوامل كانت بمثابة الإيعاز العقلي والواقعي لتحقيق النصر، لذلك لا يرتبط الانتصار في معركة اليرموك كما يتصور الكثيرون بفكرة الإيمان العقائدي فقط بل يكمن كذلك في دراية قائد المعركة بتكتيكات الحرب النفسية وفهمه العمق للدور الفعال لمعنويات الجيش في تحقيق النصر بالرغم من قلة العدد والتعداد.

ويلاحظ دائماً بأن خالد ابن الوليد يستعمل بكثرة في خططه الحربية إستراتيجية تطويق العدو من الخلف لضرب العدو في صفوفه الخلفية وقد كللت هذه الإستراتيجية بالنجاح، كان من عادة الرومان تقييد جنودهم بالسلاسل الحديدية لمنعهم من الهرب وإجبارهم على القتال، وقد قام خالد ابن الوليد باستدراج الجنود البيزنطيين إلى حافة الوادي بحيث كان القضاء على واحد أو اثنين كافياً لإسقاط مجموعة العشرة بسبب القيد، وأخذ جنود الروم يتساقطون في الوادي مجموعة تلو الأخرى حتى سقط منهم في الوادي 80 ألف قتيل، في اليوم الموالي كان البيزنطيون قد أدخلوا ميدان القتال وانسحبوا على شكل مجموعات صغيرة، وهنا اصدر خالد ابن الوليد أوامره بإعادة التنظيم ووجه مفارز صغرى لمطاردة فلول المنسحبين الأمر الذي أمكن من قتل 40 ألف من الروم خلال فترة الانسحاب.

لم يدرك قادة الروم وغيرهم من الأمم التي حاربت الجيوش الإسلامية عمق جذور الدين الإسلامي في نفوس المقاتلين المسلمين²⁶، والمرتبطة بالدرجة الأولى بمفاهيم تتعلق بالجهاد²⁷ والاستشهاد، إضافة إلى الأخذ بالأسباب الواقعية والحقيقية للنص، والتكوين النفسي لمعنويات الجيش ودراسة أرض المعركة ووضع التكتيكات والخطط الحربية المحكمة وغيرها، وتجدر الإشارة إلى أن الدمج بين هذه التوليفة من المبادئ في الحرب من خلال مختلف المعارك يشكل إستراتيجية المسلمين العسكرية، وكذا طريقتهم في القتال وهو الأمر الذي يُفسر موضوعياً كسب معركة اليرموك وجل المعارك التي خاضوها القرون الوسطى.

4. الخاتمة:

يمكن في ختام هذه الدراسة الجزم بأن الإستراتيجية العسكرية في الفكر الإسلامي قد عرفت تطوراً ملحوظاً، ولا يتجلى ذلك فقط في مجموعة المبادئ التي تميز بها مفهوم الحرب في الفكر الإسلامي، والتي حولت الحرب من المفاهيم والسياقات المادية المتعلقة بنشر الرعب وتحقيق النصر، إلى مفاهيم أخرى تتعلق بمراعاة الجوانب الأخلاقية والعقائدية لساحات الحروب والقتال.

فالمبادئ الأخلاقية في الحرب -التي تم فيما بعد الإقرار بضرورة مراعاتها من قبل مختلف الهيئات الأممية في الحروب الحديثة- كان الفكر الإسلامي سباقاً للدفاع عنها ضمن مجموعة من الأفكار التي كوّنت لإدماج المفاهيم الإنسانية والعمل على التخفيف من فكرة العنف المطلق في الحرب، لكن هذا لم يمنع أحد القادة العسكريين في فترة الفتوحات الإسلامية بأسباب النصر وإعداد الجيش ووضع الخطط الحربية المحكمة، لعل أهمها تلك التي تم فيها الاعتماد على رفع الروح المعنوية للجيش والثقة المتبادلة بين القادة والجنود والاعتماد المكثف على الحرب النفسية، كل هذه العوامل وأخرى أدت إلى سقوط أهم المدن وأكثرها تحصناً كإسكندرية والقسطنطينية، وفي غضون مئة سنة امتدت الدولة الإسلامية من بحر الأورال إلى أعالي النيل، ومن تخوم الصين إلى خليج غاسكونيا الأوروبي.

5. الهوامش:

1 I. B. HOLLEY JR, Technology and Military Doctrine Essays on a Challenging Relationship, Maxwell Air Force Base: Air University Press, 2004, p 1-3.

² بيرت تشاين: العقيدة العسكرية " دليل مرجعي"، ترجمة: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، مصر، 2015، ص12.

³ David Poin, The National Security Doctrine, Militray Threat Perception , and The Dirty War in Argentina, Compative Poltical Studies, Vol 12, N 3, 1988, p385-386.

⁴ محمد يوسف عمرو العملة: الأمن القومي العربي عقيدة الجهاد والإستراتيجية العسكرية في الإسلام، الرؤية للنشر والتوزيع، 2009.

⁵ سورة البقرة، الآية: 208.

⁶ سورة الأنفال، الآية: 61.

⁷ لقد تم تحديد تعريف الجهاد في معناه العسكري لأن هناك من المفكرين مثل عبد الرحمان الكواكبي والذين ربطوا هذا المفهوم بمجالات أخرى غير عسكرية كجهاد النفس، إلا هذه الدراسة تهتم بمفهوم الجهاد في إطاره العسكري.

⁸ محمود محمد احمد: تطور مفهوم الجهاد دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2015.

⁹ سورة الحج، الآية: 39.

¹⁰ سورة البقرة، الآية: 190.

¹¹ حميد الصغير: أخلاقيات الحروب في السيرة النبوية، راجع الموقع الإلكتروني، تاريخ التصفح: 14:55، 2021/08/10:

http://www.alukah.net/books/files/book_6576/bookfile/akhlaqyat.pdf

¹² سورة الأنفال، الآية: 67.

¹³ حامد محمد الخليفة: أخلاق وآداب الحرب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى، ص 421.

- ¹⁴ Akram Abbas, Guerre et paix en islam : naissance et évolution d'une « théorie », Les discours de la guerre, n° 73, novembre 2003, p 56-57.
- 15 نور الدين حاروش: تاريخ الفكر السياسي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، الجزائر، 2017.
- 16 المرجع نفسه.
- 17 فتحي التركي، السيف والقلم: ابن خلدون وإشكالية الحرب، مجلة أفكار وآفاق - العدد 1 مارس 2011، ص 5.
- 18 المرجع نفسه، ص 5-7.
- 19 المرجع نفسه، ص 5.
- 20 المرجع نفسه، ص 8.
- 21 ألفريد مارشال مونتغمري: الحرب عبر التاريخ، ترجمة: فتحي عبد الله النمر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971، ص 189.
- 22 بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين عمليات الجبهات الشمالية والشرقية والبحرية، بيروت لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد الأول، سنة 1988، ص 110.
- 23 خالد بن الوليد: 592-642م هو صحابي وقائد عسكري مسلم، لقّبه الرسول صلى الله عليه وسلم بسيف الله المسلول، اشتهر بحسن تخطيطه العسكري وبراعته في قيادة جيوش المسلمين.
- 24 عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، مواقف في معركة اليرموك، جامعة أم القرى، السعودية، 2013، ص 66.
- 25 الكراديس جمع كردوس وهي محرفة من الكلمة الرومانية kortis وتتراوح قوتها بين 500 و 600 مقاتل.
- 26 المرجع نفسه.
- 27 الجهاد في الإسلام له أشكال عديدة والقتال أحد أشكال الجهاد، ولكل نوع من أنواع الجهاد قيمته ومنزلته وهي كلها مرتبطة بإحراز النصر في المعركة.

6. قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية

1. سورة البقرة، الآية: 208.
2. سورة الأنفال، الآية: 61.
3. سورة الحج، الآية: 39.
4. سورة البقرة، الآية: 190.
5. سورة الأنفال، الآية: 67.
6. ألفريد مارشال مونتغمري: الحرب عبر التاريخ، ترجمة: فتحي عبد الله النمر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971.
7. بسام العسلي: فن الحرب الإسلامي في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين عمليات الجبهات الشمالية والشرقية والبحرية، بيروت لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد الأول، سنة 1988.
8. بيرت تشاين: العقيدة العسكرية " دليل مرجعي"، ترجمة: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، مصر، 2015.
9. حامد محمد الخليفة: أخلاق وآداب الحرب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، الطبعة الأولى.

10. حميد الصغير: أخلاقيات الحروب في السيرة النبوية، راجع الموقع الإلكتروني، تاريخ التصفح: 14:55،
http://www.alukah.net/books/files/book_6576/bookfile/akhlaqyat.pdf: 2021/08/10
11. محمد يوسف عمرو العملة: الأمن القومي العربي عقيدة الجهاد والإستراتيجية العسكرية في الإسلام، الراية للنشر والتوزيع،
2009.
12. محمود محمد احمد، تطور مفهوم الجهاد دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت،
2015.
13. نور الدين حاروش: تاريخ الفكر السياسي، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، الجزائر، 2017.
14. فتحي التركي، السيف والقلم: ابن خلدون وإشكالية الحرب، مجلة أفكار وآفاق - العدد 1 مارس 2011.

باللغات الأجنبية

1. Akram Abbes, Guerre et paix en islam : naissance et évolution d'une « théorie », **Les discours de la guerre**, n° 73, novembre 2003.
2. I. B. HOLLEY JR, **Technology and Military Doctrine Essays on a Challenging Relationship**, Maxwell Air Force Base: Air University Press, 2004.
3. David Poin, The National Security Doctrine, Militray Threat Perception , and The Dirty War in Argentina, **Compartive Poltical Studies**, Vol 12, N 3, 1988.